

ابن كثير حياته ومنهجه في التفاسير مع نماذج تطبيقية

د. الطيب أبو خريص الشيباني
قسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب
جامعة طرابلس

تمهيد:

لقد تطاولت أعناق ذوى الهمم من العلماء الذين حاولوا تدبر معانى القرآن واستخراج ما فيه من كنوز المعرفة وأسرار البيان ولعل من حماية الله لهذا الدين وصيانة جنابه، تلك الكواكب النيرة من العلماء والفضلاء الذين يخرجهم الله ويستخدمهم في الدفاع عن دينه والذب عن سنة نبيه، وهم عدول فضلاء، ينفون عن الدين انتحال المبطلين، وسفاهة الجاهلين، وتحريف الغالين. ومن تلك القمم التى نفاخر بها الإمام العلامة الحافظ ابن كثير أحد الأئمة الأعلام

جهاذة المفسرين، الذي ترك تراثاً متنوعاً ومتميزاً، اخترت أن يكون موضوع بحثي حول سيرته ومنهجه وطريقته في التفسير. وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تضمن سيرته ونبذة من حياته، ثم مؤلفاته التي مازالت إلى يومنا هذا من المراجع المهمة في مكتبتنا. المبحث الثاني تناول منهجيته وطريقته في التفسير. أما المبحث الثالث فقد احتوى على صور من تطبيقات منهجيته في التفسير من خلال سورة الرحمن؛ فأوردت طريقة ابن كثير في تفسيره للقرآن الكريم، الذي سبق عرضه في المبحث الثاني. أما الخاتمة فقد تضمنت النتائج التي تم التوصل إليها، مذيلاً البحث بقائمة من المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها لإخراجه في صورته النهائية، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول:

أولاً- التعريف بالمؤلف:

هو أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ذرع البصري الدمشقي الفقيه الشافعي المفسر، ولد في قرية من قرى بصرى سنة 701هـ⁽¹⁾ ونشأ الإمام بعد وفاة والده في رعاية شقيقه الأكبر الذي قال عنه: "كان لنا شقيقاً، وبنار فيقاً شفوفاً"⁽²⁾.

رحل إلى دمشق مع أخيه بعد موت والده وهو ابن سبع سنين، وتفقه على الشيخين برهان الدين الفزاري وكمال الدين بن قاضي شهبه، وصاهر الحافظ أبا الحجاج المزني ولازمه وأخذ عنه، وأقبل على علم الحديث وأخذ الكثير عن ابن تيمية، وقرأ الأصول على الأصفهاني وسمع الكثير، وأقبل على حفظ المتون ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك وهو شاب؛ فكان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ⁽³⁾.

واشتهر (رحمه الله) أيضاً بالتفسير، يشهد لهذا ما يراه القارئ في تفسيره من تمحيص وتصحيح ورد للضعيف فيما يرويه من الآثار⁽⁴⁾.

تميز عصر ابن كثير بنشاط علمي بارز تمثل في كثرة المدارس وكثرة التأليف، وبخاصة التأليف الموسوعية منها، على الرغم ما شهده القرن الثامن الهجري من أحداث عظيمة في ظل دولة المماليك، تمثلت بهجوم التتار، والمجاعات الكثيرة المتواترة، والأوبئة التي حصدت الملايين من الناس، كما شهدت الحروب مع الصليبيين، وكثرة المؤامرات والفتن بين الأمراء والوزراء.

تتلذذ على عدد من الشيوخ نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر شيخ الإسلام أبا العباس بن تيمية، والحافظ أبا الحجاج يوسف المزي، والحافظ أبا عبد الله بن أحمد الذهبي، والشيخ أبا العباس أحمد الحجار الشهير بابن الشحنة، والشيخ أبا إسحاق الفزاري (عليهم رحمة الله أجمعين)⁽⁵⁾.

وقد أثنى عليه العلماء المعاصرون له ومن بعدهم ثناءً عظيماً؛ فقال الحافظ الذهبي في طبقات شيوخه: "وسمعت مع الفقيه المفتي المحدث، ذي الفضائل عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري الشافعي.. سمع من ابن الشحنة وابن الزراد، له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرّج وناظر وصنّف وفسر وتقدم"⁽⁶⁾.

وقال عنه أيضاً في المعجم المختص: "الإمام المفتي المحدث البارع فقيه متقن، محدث متقن مفسر"⁽⁷⁾.

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني: "صاهر شيخنا أبا الحجاج المزي، وأفتى ودرس وناظر وبرع في الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر في الرجال والعلل"⁽⁸⁾.

وقال العلامة ابن ناصر الدين: "الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين"⁽⁹⁾.

وقال ابن تغري بردي: "لازم الاشتغال، ودأب وحصل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والعربية وأفتى ودرس إلى أن توفي" (10).

وقال عنه أحد تلاميذه: "هو أحفظ من أدركناه لمتون الحديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك" (11).

وشهد له أحد شيوخه بغزارة علمه فقال: "فقيه متفنن، ومحدث متقن ومفسر ناقد" (12) كان يستحضر شيئاً كثيراً من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن، ويحفظ "التنبيه" (13) إلى آخر الوقت، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، وينظم الشعر، وكانت له خصوصية بالشيخ تقي الدين ابن تيمية، ومناضلة عنه، واتباع له في كثير من آرائه، وكان يفتي برأيه في مسألة الطلاق، وامتنح بسبب ذلك وأوذي، وولي مشيخة أم الصالح بعد موت الذهبي، وولي بعد موت السبكي مشيخة دار الحديث الإشرافية مدة يسيرة، ثم أخذت منه. قال في أنباء الغمر (14) وهو القائل:

تمر بنا الأيام تترى وإنما... يساق إلى الآجال والعين تتظـر
فلا عائد ذاك الشباب الذي مضى... ولا زال هذا المشيب المكدر

مؤلفات ابن كثير:

تعددت مؤلفاته في مختلف علوم الشريعة، ومن أعظمها في علوم القرآن: تفسير القرآن العظيم، وفضائل القرآن.

وفي السنة وعلومها له: أحاديث الأصول، وشرح صحيح البخاري، والتكميل في الجرح والتعديل، واختصار علوم الحديث، والأحكام الصغرى في الحديث، وغيرها كثير (15).

أما في الفقه وأصوله فله: الأحكام الكبرى، وكتاب الصيام، والمقدمات في أصول الفقه، وغيرها كثير (16).

صنف في صغره كتاب "الأحكام على أبواب التنبيه"، وكتابه في التاريخ المسمى "البداية والنهاية"، وفي التفسير كتابا في جمع المسانيد العشرة، واختصر "تهذيب الكمال"، وأضاف إليه ما تأخر في "الميزان" سماه التكميل، وطبقات الشافعية، ومناقب الإمام الشافعي، وخرّج الأحاديث الواقعة في "مختصر ابن الحاجب، وسيرة صغيرة، وشرح في أحكام كثيرة حافلة كتب منها مجلدات إلى الحج، وشرح قطعة من البخاري، وقطعة كبيرة من التنبيه.

- له ترجمة في أبناء الغمر لابن حجر 39/1.
- البدر الطالع للشوكاني 153/1.
- الدرر الكامنة لابن حجر 399/1.
- ذيل تذكرة الحافظ للسيوطي 57/36.
- طبقات الشافعية لابن قاضي شهبه.
- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي 123/11⁽¹⁷⁾

المبحث الثاني:

منهج ابن كثير في التفسير:

كتاب ابن كثير والمسمى "تفسير القرآن العظيم يعتبر من أشهر ما دون في التفسير بالمأثور، وهو الكتاب الثاني بعد الطبري ويمتاز عليه بما اعتنى به من التصحيح والتضعيف ونقد المرويات ورد الأباطيل من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعية، وقدم له بمقدمة إضافية مهمة يعرض فيها الكثير من الأمور التي لها علاقة بالقرآن وتفسيره، كمقدمة شيخه ابن تيمية في أصول التفسير، وأحقه بخاتمة تتضمن فضائل القرآن وتلاوته وتفسيره؛ وما إلى ذلك، والكتاب مطبوع متداول، طبع مع تفسير البغوي ومستقلاً في أربعة مجلدات كبار⁽¹⁸⁾.

ويعد تفسير الحافظ ابن كثير (رحمه الله) من الكتب التي من الله تعالى عليها بالقبول والذيع فانتشر انتشاراً واسعاً عبر جميع العصور إلى يومنا هذا. قال عنه السيوطي: "له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله"، وقال عنه الشوكاني: "وله تصانيف منها التفسير المشهور وهو في مجلدات، وقد جمع فأوعى، ونقل المذاهب والأخبار والآثار وتكلم بأحسن كلام وأنفس، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها".

تفسير القرآن العظيم لابن كثير هو تفسير جامع بين الرواية والدارية يفسر القرآن بالقرآن ثم بالأحاديث المشهورة في دواوين السنة المطهرة بأسانيدها، ويتكلم عن الأسانيد جرحاً وتعديلاً فيبين ما فيها من صحيح وضعيف وغريب أو شاذ، ثم يذكر آثار الصحابة والتابعين، وقد وضح ابن كثير (رحمه الله) في مقدمة تفسيره هذا المنهج الذي سلكه فقال: "فإن قال قائل: ما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: إن أحسن طرق التفسير في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له⁽¹⁹⁾، بل قال الإمام عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (رحمه الله): كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو من القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾⁽²⁰⁾ وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽²¹⁾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁽²²⁾، ولهذا قال رسول الله ﷺ "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"⁽²³⁾ يعني السنة، والسنة -أيضاً- تنزل عليه بالوحي؛ وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدري بذلك لما شاهدوا من القرآن والأحوال التي اقتصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبراءهم كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين المهديين وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين، وإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين"⁽²⁴⁾.

أما طريقته في تناول تفسير الآية فنتلخص في الآتي:

- 1- يبدأ العلامة ابن كثير في بداية تفسيره لأي سورة بذكر أسباب النزول، وذكر فضلها، والاستدلال على ذلك بأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويذكر عدد آياتها وحروفها وكلماتها، فمثلاً عندما تحدث عن سورة البقرة فقال فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وهذا يدل على مدى دقة ابن كثير.
- 2- ثم يفتح الكلام عن الآية أو الآيات بتفسيرها بعبارة سهلة وموجزة، وذكر شواهد ونظائر تتفق معها في إفادة الغرض والمقصود، ولا يقتصر على مجرد ذكر الآيات، بل إن أمكن توضيح الآية بآية أخرى أو آيات ذكرها كذلك، ونراه يقارن بين الآيتين أو الآيات حتى يتضح المعنى والمقصود. وهو شديد القناعة بهذا اللون من التفسير المسمى بتفسير القرآن بالقرآن؛ ثم بعد ذلك يأتي بالروايات من السنة المرفوعة وتفسير الصحابة والتابعين ومن بعدهم من السلف بسنده المتصل إلى من يروى عنهم.
- 3- يذكر الحديث بسنده ويعقب عليه بالحكم في الغالب، ويرجح بعض الروايات على بعض، ويضعف البعض الآخر منها، مؤيداً ما يراه موافقاً للأدلة، ويتكلم عن الرواة تعديلاً وتجريحاً، وهذا يرجع إلى معرفته الفاتحة بعلوم الحديث، وهذه خصوصية جعلت هذا الكتاب يحظى بالقبول والاستحسان من كافة العلماء.
- 4- لا يتعصب لرأي أو تقليد بدون دليل ويرجح ما يراه حقاً.
- 5- لا يعتمد إلا على ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله، ويبتعد عن القصص والروايات الإسرائيلية، ويحذر منها على سبيل الإجمال تارة وعلى وجه التعيين لبعض منها أحياناً أخرى.
- 6- اعتمد على تفسير سلف الأمة فيما يتعلق بالأسماء والصفات من غير تحريف ولا تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل.

7- اعتمد في تفسيره على الأحاديث الواردة الثابتة كالأحاديث الواردة في الصلاة على النبي عند قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾⁽²⁵⁾ وأحاديث الإسراء والمعراج عند قول الله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾⁽²⁶⁾.

8- يتعرض للمناقشات الفقهية، ويذكر أقوال العلماء في آيات الأحكام وأدلتهم، ولكنه مقل في هذا ومقتصد غير مسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين.

من هذه الطريقة التي سلكها والمنهج القويم الذي اتبعه العلامة ابن كثير تظهر القيمة العلمية الكبيرة والمنزلة العظيمة بين كتب التفسير عموماً، وقد تميز تفسيره من بين كتب التفسير المأثور بتعرضه لنقد الروايات والتمييز بين صحيحها وسقيمها نقداً مبنياً على علم تام بعلم الحديث وأحوال رجاله؛ ولهذا قال العلماء النقات: إنه لم يؤلف على نمطه أو مثله، وقد اعتبروه الكتاب الثاني في التفسير بالمأثور بعد تفسير ابن جرير.

هذا ولسلامة هذا التفسير من الإسرائيليات والموضوعات فعلى كل طالب دراسات إسلامية أن يفتنيه، ويطلع عليه والاعتناء بما فيه من نقد وتمحيص وتصفية؛ لما علق بالتفسير النقلي من باطل ودس، حتى يتمكن الطالب من فهم كلام الله فهماً صحيحاً سليماً، قال الشيخ محمد أبو شهية: "وللإمام ابن كثير حاسة دقيقة وملكة راسخة في نقد المرويات"⁽²⁷⁾؛ الأمر الذي جعله يتفطن إلى الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير الأخرى، وينبه إلى مصدرها ومنشئها، وكيف اندست في الروايات الإسلامية، وقد اهتم به العلماء، ونال إعجابهم فلخصوه، ومن أهمها: مختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد علي الصابوني؛ فقد اختصره في ثلاثة مجلدات كبار.

المبحث الثالث

صور من تطبيقات المنهج لدى ابن كثير:

تحدثت فيما سبق عن منهج وطريقة ابن كثير في التفسير، وفي هذا المبحث سأحدث عن تطبيق هذا المنهج الذي انتهجه ابن كثير من خلال تفسيره لسورة الرحمن التي تسمى عروس القرآن.

ومن خلال قراءتي لهذا التفسير لمست بوضوح تطبيق المنهج الذي رسمه ابن كثير في مقدمته، وأفيت المؤلف يعتني بالتفسير المأثور عناية كبيرة؛ فيكثر من تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة النبوية، وتفسيره بأقوال الصحابة والتابعين.

ونلاحظ أنه التزم بإضافة الأقوال إلى قائلها والأحاديث إلى مصنفها وذلك من

بركة العلم.

بدأ في تفسير سورة الرحمن بذكر الحديث: (روى الترمذي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر (رضي الله عنه) قال: خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: "لقد قرأناها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله تعالى: (فبأي آلاء ربكما تكذبان) قالوا: لا شيء من نعمك نكذب فلك الحمد" (28)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (29)﴾

يبدأ بتفسير بسيط وسهل يمكن للقارئ فهمه بيسر، فيقول: "يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه، أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمته، فقال تعالى: "الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان"، ثم نلاحظ أنه يستدل بأقوال الصحابة في تفسير كلمة "البيان"، ويرجح قول الحسن ويذكر سبب ترجيحه، يقول: "قال الحسن: يعني النطق، وقال الضحاك: يعني الخير والشر، وقول الحسن ها هنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها، على اختلاف مخارجها وأنواعها.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، يقول: "أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن، لا يختلف ولا يضطر، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾⁽³⁰⁾، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾⁽³¹⁾.

وفي تفسير قوله تعالى: "والنجم والشجر يسجدان"، يقول: "اختلف المفسرون في معنى قوله "النجم"؛ فروى عن ابن عباس "النجم" ما انبسط على وجه الأرض، يعني من النبات⁽³²⁾ وقال مجاهد: النجم الذي في السماء، وكذا قال الحسن وقتادة، وهذا القول هو الأظهر والله أعلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾⁽³³⁾.

وفي تفسير قوله تعالى: "والسمااء رفعها ووضع الميزان" يقول: "يعني العدل كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾⁽³⁴⁾، وهكذا قال هاهنا: "ألا تطغوا في الميزان"؛ أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوِزْنَ الْقِسْطَ وَلَا تَخْسَرُوا الْمِيزَانَ﴾؛ أي: لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى: ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾⁽³⁵⁾.

وفي تفسير قوله تعالى: "والأرض وضعها للأنام"، يقول: "أي: السماء أرساها بالجبال الشامخات؛ لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهو الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم في سائر أقطارها وأرجائها، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: الأنام: الخلق.

وفي تفسير قوله تعالى: "فيها فاكهة"، يقول: "أي: مختلفة الألوان والطعوم والروائح" والنخل ذات الأكمام" أفراد بالذكر لشرفه ونفعه رطباً ويابساً، والأكمام، قال ابن عباس: هي أوعية الطلع وهو الذي يطلع فيه القنؤ، ثم ينشق عن العنقود فيكون بسراً ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه، الأكمام رفاتها، وهو الليف الذي على عنق النخلة، وهو قول الحسن وقتادة، "والحب ذو العصف والريحان" قال ابن العباس: (ذو العصف) يعني التبن، وعنه: العصف ورق الزرع الأخضر الذي قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس وكذا قال قتادة والضحاك: تبنه، وقال ابن عباس ومجاهد: الريحان يعني الورق، وقال الحسن: هو ريحانكم هذا ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما، له في حال نباته عصف وهو ما على السنبله، وريحان: وهو الورق الملتف على ساقها، وقيل: العصف الورق، أو ما ينبت الزرع بقللاً، والريحان: الورق، يعني: إذا أذجن وانعقد فيه الحب كما قال زيد بن عمر بن نفيل في قصيدته المشهورة⁽³⁶⁾:
وَقَوْلًا لَهُ:

من يُنْبِتُ الحَبَّ في التَّـرَى فَيُصْبِحَ منه البقلُ يَهْتَزُّ رابِيا
ويُخْرِجُ منه حَبَّهُ في رُؤوسِهِ ففِي ذاك آياتٌ لِمَنْ كانَ واعِيا

وفي تفسير قوله تعالى: "فبأي آلاء ربكما تكذبان"، يقول: "فبأي الآلاء يا معشر الثقلين من الأنس والجن تكذبان؟ أي: النعم ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن: "اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب؛ فلك الحمد"، وكان ابن العباس يقول: لا بأياها يا رب؛ أي: لا نكذب بشيء منها⁽³⁷⁾.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) فَبِأَيِّ آيَاتٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (16) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آيَاتٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (18) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آيَاتٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) فَبِأَيِّ آيَاتٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (23) وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) فَبِأَيِّ آيَاتٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ (25)﴾

يذكر الله تعالى: خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلقه الجان من مارج من نار، وهو طرف لهبها، قاله ابن عباس، وعنه: "من مارج من نار"، من لهب النار من أحسنها، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "من مارج من نار"، من خالص النار، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك وغيرهم، وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم" (38).

وفي تفسير قوله تعالى: "رب المشرقين ورب المغربين"، يقول: "يعني مشرقى الصيف والشتاء، ومغربى الصيف والشتاء، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (39)، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس، وقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (40)، "مرج البحرين" قال ابن عباس: أي: أرسلها، وقوله: "يلتقيان"، قال ابن زيد: أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما، والمراد بقوله "البحرين": الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس؛ وقد اختار ابن جرير: أن المراد بالبحرين بحر السماء الأرض؛ لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض، وهذا لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: "بينهما برزخ لا يبغيان" أي: جعل بينهما برزخاً، وهو الحاجز من الأرض؛ لئلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً وحجراً محجوراً (41).

وقوله تعالى: "يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان"؛ أي: من مجموعهم، فإذا جد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾⁽⁴²⁾، والرسول إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق، واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ، وقيل كباره وجيده، حكاه ابن جرير عن بعض السلف، وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون، قال ابن مسعود: المرجان الخرز الأحمر، وأما قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِنَبْتَعُوهَا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽⁴³⁾؛ فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية إنما هي من الملح دون العذب. قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء في البحر، فوقع في صدفة إلا ومنها لؤلؤة، ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض امتن بها عليهم فقال: "قبأي الآء ربكما تكذبان"؟.

وقوله تعالى: "وله الجوار المنشآت"، يعني: السفن التي تجري "في البحر"، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت، وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت، وقال: قتادة المنشآت يعني المخلوقات وقال غيره: المنشآت بكسر الشين يعني البادئات، "كالأعلام"؛ أي: كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، مما فيه صلاح الناس في جلب ما يحتاجون إليه ومن سائر أنواع البضائع، ولهذا قال: "قبأي الآلاء ربكما تكذبان"؟ عن عمرة بن سويد قال: "كنت مع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها فبسط علي يديه، ثم قال: يقول الله عز وجل: "وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام"، والذي أنشأها تجري في بحوره ما قتل عثمان ولا مالأت على قتله"⁽⁴⁴⁾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (28) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (30)﴾.

يخبر الله تعالى: أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، فإن الرب تعالى هو الحي الذي لا يموت أبداً، قال قتادة: "أنبأ بما خلق، ثم إن ذلك كله فان"، وفي الدعاء المأثور: يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك، وقال الشعبي: إذا قرأت: "كل من عليها فان" فلا تسكت حتى تقرأ: "ويبقى وجهه ربك ذو الجلال والإكرام".

وهذه الآية كقوله تعالى: "كل شيء هالك إلا وجهه"، وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام؛ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله تعالى: "يريدون وجهه" وكقوله: ﴿إِنَّمَا نُنْطَعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ (45)، قال ابن عباس: "ذو الجلال والإكرام": ذو العظمة والكبرياء، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم في الوفاة، وإنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل، قال: "فبأي الألاء ربكما تكذبان"، وقوله تعالى: "يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن"، وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه، وإنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وإنه كل يوم هو في شأن، قال الأعمش: من شأنه يجيب داعياً أو يعطى سائلاً، أو يفك عانياً أو يشفى سقيماً، وقال مجاهد: كل يوم هو يجيب داعياً، ويكشف كرباً، ويجيب مضطراً، ويغفر ذنباً، وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض يحي حياً، ويميت ميتاً، ويربي صغيراً، ويفك أسيراً، وهو منتهى حاجات الصالحين وضريههم، ومنتهى شكواهم؛ وروى ابن جرير عن منيب الأزدي قال: رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه الآية "كل يوم هو في شأن"، فقلنا: يا رسول الله وما ذاك الشأن؟ قال: "أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين" (46).

وقال ابن عباس: إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه ياقوتة حمراء قلمه نور، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق في كل نظرة، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء.

﴿ سَفَرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (32) يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

قال ابن عباس في قوله تعالى: "سفرغ لكم أيها الثقلان": "وعيد من الله تعالى للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ، وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه، وقال ابن جرير: "سفرغ لكم؛ أي: سنفضي ببيكم، وقال البخاري: سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب يقال: لأتفرغن لك، وما به شغل، يقول: لأخذنك على غرتك، وقوله تعالى: "أيها الثقلان"، الثقلان: الإنس والجن كما جاء في الصحيح: "يسمعه كل شيء إلا الثقلين"، وفي رواية "إلا الإنس والجن"، وفي حديث الصور: "الثقلان الإنس والجن"، "فبأي الآلاء ربكما تكذبان"، ثم قال تعالى: "يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسطان؛ أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم لا تقدرتون على التخلص من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب "إلا بسطان" أي إلا بأمر الله، يقول الإنسان يومئذ أين المفر"⁽⁴⁷⁾، ولهذا قال تعالى: "يرسل عليكم شواطئ من نار ونحاس فلا تنتصران"، قال ابن عباس: شواطئ هو له النار، وعنه: للشواطئ الدخان، وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال الضحاك: "شواطئ من نار" سيل من نار، وقوله تعالى: "ونحاس"، قال ابن عباس: دخان النار، وقال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاساً. روى الطبراني عن الضحك: إن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواطئ فقال: هو اللهب الذي لا دخان

معه، فسأله شاهدت على ذلك من اللغة، فأنشده بيت أمية بن أبي الصلت في حسان فقال: (48)

ألا من بلغ حسان عني مغلغلة تدب إلى عكـاظ
قال: صدقت، فما النحاس قال: هو الدخان الذي لا لهب له، قال: فهل تعرفه
العرب قال: نعم أما سمعت نابغة بني ذبيان يقول:

يضيء كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاساً
وقال مجاهد: النحاس الصفر يذاب فيصب على رؤوسهم، والمعنى: لو ذهبتم
هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب
عليكم لترجعوا، ولهذا قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36) فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (40) يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (42) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنِ
(44) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (45)﴾.

يقول تعالى: "فإذا انشقت السماء" يوم القيامة كما دلت عليها الآيات الواردة في
معناها، كقوله تعالى "وانشقت السماء فهي يومئذ واهية".

وقوله: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ (49) وقوله تعالى: "إذا
السماء انشقت وأذنت لربها وحقت"، وقوله تعالى: "فكانت وردة كالدهان"؛ أي: تذوب
الدردي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء
وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم، عن أنس بن
مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش
عليهم"، قال الجوهرى: الطش المطر الضعيف، وقال ابن عباس: "وردة كالدهان" كالأديم
الأخضر، وعنه كالفرس الورد، وقال أبو صالح: كالبرذون الورد، ثم بعد كالدهان، وقال

الحسن البصري: تكونا ألواناً، وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردية، وتكون كالمهل كدردي الزيت، وقال مجاهد: "كالدهان" كألوان الدهان، عطاء الخراساني: كلون دهن الورد في الصفرة، وقال قتادة: هي اليوم خضراء ويومئذ لونها إلى الحمرة يوم ذي ألوان، وقال أبو الجوزاء، في صفاء الدهن، وقال ابن جرير: نصير السماء كالدهان الذائب، وذلك حين يصيبها حر جهنم، وقوله تعالى: "فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان"، وهذه كقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (35) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرُونَ (36)﴾⁽⁵⁰⁾، فهذا في حال، و"ثم" في حال، يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93)﴾⁽⁵¹⁾، ولهذا قال قتادة "فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان"، قال: قد كانت مسألة ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، قال ابن العباس: لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم؛ ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا، فهذا قول ثان، وقال مجاهد في هذه الآية: لا تسأل الملائكة عن المجرمين بل يعرفون بسيماهم، وهذا قول ثالث، وكان هذا بعدما يؤمر بهم إلى النار فذلك الوقت يسألون عن ذنوبهم، بل يفادون إليها، ويلقون فيها كما قال الله تعالى: "يعرف المجرمون بسيماهم"؛ أي: بعلامات تظهر عليهم، وقال الحسن وقاتادة: يعرفون باسوداد الوجوه وزرقة العيون، قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة و التحجيل من أثار الوضوء.⁽⁵²⁾

وقوله تعالى: "فيؤخذ بالنواصي والإقدام"؛ أي: يجمع الزبانية مع قدميه ويلقونه في النار كذلك، وقال ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه فيكسر كما يكسر الحطب في التنور، وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره، وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه فتربط ناصيته بقدمه ويفتل ظهره، وقوله تعالى: "هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون"؛ أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها، ها هي حاضرة تشاهدونها عيناً، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً، وقوله تعالى: "يطوفون بينها وبين حميم آن"؛ أي: تارة يعذبون في الحميم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو

كالحساس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى ﴿إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾⁽⁵³⁾، وقوله تعالى (آن)؛ أي: حارة قد بلغ الغاية في الحرارة قال ابن العباس: قد انتهى عليه واشتد حره، وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحرك بناصيته في ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس، وهي كالتالي يقول الله تعالى: "في الحميم ثم في النار يسجرون"، فقوله "حميم آن"؛ أي: حميم حار جداً، ولما كان معاقبة العصاة المجرمين، وتنعيم المتقين من فضله ورحمته، وكان إنذاره لهم عن عذابه ويأسه، مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي، قال ممتناً بذلك على بريته: "فبأي الآلاء ربكما تكذبان؟"

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (46) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ذَوَاتَى أَفْنَانٍ (48) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (52) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (53)﴾.

قال عطاء الخراساني: نزلت هذه الآية "وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ" في أبي بكر الصديق، وقال عطية بن قيس: نزلت في الذي قال: أحرقوني بالنار لعلي أضل الله، قال تاب يوماً وليلة، بعد أن تتكلم بهذا فقبل الله منه وادخله الجنة، والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول الله تعالى: "وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ" بين يدي الله (عز وجل) يوم القيامة، "ونهى النفس عن الهوى"، ولم يطع ولا أثر الحياة الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخاري رحمه الله عن عبد الله بن قيس، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن"، وقال حماد: ولا أعلمه إلا قدر رفعه في قوله تعالى: "وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ"، وفي قوله: "ومن دونهما جنتان"، جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين، وقال عطاء بن يسار، أخبرني أبو الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوماً

هذه الآية: "وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ"؛ فقلت: وإن زنا وإن سرق؛ فقال: "وإن.... رغم أنف أبي الدر داء"⁽⁵⁴⁾، وهذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: "وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ"، ثم نعت هاتين الجنيتين فقال: "ذواتا أفنان"؛ أي: أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضجة، "فبأي الآلاء ربكما تكذبان"، هكذا قال عطاء وجماعة: أن الأفنان أغصان الشجر يمس بعضهما بعضاً، وقال عكرمة "ذواتا أفنان" يقول: ظل الأغصان على الحيطان، ألم تسمع قول الشاعر:

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغصون حماما

وعن ابن عباس "ذواتا أفنان": ذواتا ألوان، ومعنى هذا القول: أن فيهما فنوناً من الملاذ واختاره ابن جرير، وقال ابن عطاء: كل غصن يجمع فنوناً من الفاكهة، وقال الربيع بن أنس: "ذواتا أفنان"، واسعتا الفناء، وكل هذه الأقوال صحيحة ولا منافاة بينهما والله اعلم، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر سدرة المنتهى فقال: "يسير في ظل الفنن منها الراكب مائة سنة - أو قال: يستظل في ظل الفنن منها مائة ركب - فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال". "فيهما عيَّان تجريان"؛ أي: تسرحان لسقي تلك الأشجار والغصان⁽⁵⁵⁾، فتثمر من جميع الألوان، قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها تسنيم، والأخرى السلسبيل، وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين، ولهذا قال بعد هذا: "فيهما من كل فاكهة زوجان"؛ أي: من جميع أنواع الثمار، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال قلب بشر، "فبأي الآء ربكما تكذبان"، قال ابن عباس: ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة، وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء؛ يعني: أن بين ذلك بوناً عظيماً، وفرقاً في التفاصيل.

﴿مُتَّكِبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آءِ

رَبُّكُمْ تُكذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (61) ﴿ يقول تعالى: "متكئين"، يعني أهل الجنة، والمراد بالاتكاء هاهنا الاضطجاع، ويقال: الجلوس على صفة التزبيح "على فرش بطائنها من إستبرق"، وهو ما غلظ من الديداج، وقيل: هو الديداج المزين بالذهب، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة، فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى، قال ابن مسعود: هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر قال مالك بن دينار: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور، وقال الثوري: بطائنها من إستبرق وظواهرها من الرحمة".

"وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ" أي ثمرهما قريب إليهم متى شأوا تناولوه، على أي صفة مكانوا كما قال تعالى: "قطوفها دانية"، وقال: "ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً"؛ أي: لا تمتنع ممن تناولها بل تتحط إليه أغصانها، "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ"، ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك "فيهن" أي في الفرش "قاصرات الطرف" أي غضضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن، وقد ورد إن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى في الجنة شيئاً أجسن منك، ولا في الجنة شيئاً أحب منك، فالحمد لله الذي جعلك وجعلني لك، "لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ"؛ أي: بل هن أبكاراً أتراباً، لم يطمئنهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة، سئل ضمرة بن حبيب هل يدخل الجن الجنة قال: نعم، وينكحون، للجن جنيات وللإنس إنسيات، وذلك قوله: "لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" ثم قال ينعتهن للخطاب، "كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ". (56)

قال مجاهد: في صفات الياقوت وبياض المرجان، فجعلوا المرجان ها هنا اللؤلؤ، عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن المرأة من نساء الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها"، وذلك قوله تعالى: "كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ"؛ فأما الياقوت فإنه حجر لولي أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه. (57)

وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "للرجال من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون محلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب"، وعن محمد بن سيرين قال: إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء، فقال أبو هريرة: أولم يقل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: "أن أول زمرة تدخل الجنة كصورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على ضوء كوكب في لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ ساقيهما من وراء اللحم وما في الجنة أعزب".

وروى الإمام أحمد، عن أنس أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ولو اطلعت امرأة من نساء الجنة إلى الأرض لمألت ما بينهما ريحا ولطاب ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها"، وقوله تعالى: "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان"؛ أي: ليس لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة كما قال تعالى: للذين أحسنوا الحسنى وزيادة". روى البغوي عن أنس مالك قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان"، وقال: هل تدرون ما قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم، قال يقول: هل جزاء ما أنعمت عليه التوحيد إلا الجنة. (58)

﴿وَمَنْ دُونَهُمَا جَنَّاتٍ (62) فَبَائٍ آلَاءِ رَبُّكُمْ تُكذَّبَانِ (63) مُدْهَمَّتَانِ (64) فَبَائٍ آلَاءِ رَبُّكُمْ تُكذَّبَانِ (65) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ (66) فَبَائٍ آلَاءِ رَبُّكُمْ تُكذَّبَانِ (67) فِيهِمَا فَآكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) فَبَائٍ آلَاءِ رَبُّكُمْ تُكذَّبَانِ (69) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ (70) فَبَائٍ آلَاءِ رَبُّكُمْ تُكذَّبَانِ (71) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72) فَبَائٍ آلَاءِ رَبُّكُمْ تُكذَّبَانِ (73) لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ (74) فَبَائٍ آلَاءِ رَبُّكُمْ تُكذَّبَانِ (75) مُتَكَنِّبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76) فَبَائٍ آلَاءِ رَبُّكُمْ تُكذَّبَانِ (77) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78)﴾.

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما، في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن قال الله تعالى: "ومن دُونَهُمَا جَنَّاتٍ" وقد تقدم في الحديث: "جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما،

وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما"، فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين، وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين وجنتان من فضة لأصحاب اليمين، وقال ابن عباس: "ومن دُونَهُمَا جَنَّتَانِ": من دونهما في الدرجة، وقال ابن زيد: من دونهما في الفضل: "مدهامتان"؛ أي: سوداوان من شدة الري من الماء، قال ابن عباس "مدهامتان" قد اسودتا من الخضرة من شدة الري من الماء، وعنه "مدهامتان" قال خضروان: وقال محمد بن كعب: ممتلئتان ومن الخضرة، وقال قتادة: خضروان من الري ناعمتان، ولا شك في نضارة الأغصان على الأشجار المشتبكة بعضها في بعض، وقال هناك: "فيهما عَيْنَانِ تجريان"، وقال ها هنا "نَضَاخَتَانِ" قال ابن العباس؛ أي: فياضتان والجري أقوى من النضخ، وقال الضحاك "نَضَاخَتَانِ"؛ أي: ممتلئتان ولا تنقطعان، وقال هناك: "فيهما من كل فاكهة زوجان"، وقال ها هنا "فيهما فاكهة ونخل ورمان"، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنوع على "فاكهة" وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم، ولهذا ليس قوله: "ونخل ورمان"، من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما، عن عمر بن الخطاب قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد أفي الجنة فاكهة؟ قال: "نعم فيها فاكهة ونخل ورمان"، قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: "نعم، أضعاف"، قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال: "لا ولكنهم يعرفون ويرشحون فيذهب ما في بطونهم من أذى".⁽⁵⁹⁾

وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: "نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، أحلى من العسل وأين من الزبد وليس له عجم". وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "نظرت إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها كالبعير المقتب"، ثم قال: "فيهن خيرات حسان"، قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة مقال قتادة، وقيل: "خيرات" جمع خيرة وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه قال الجمهور، وفي الحديث الآخر الذي سنورده في سورة الواقعة إن شاء الله أن الحور العين يغنين: "نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام" ولهذا قرأ بعضهم: "حور مقصورات في الخيام"،

وهناك قال: "فيهن قاصرات الطرف"، ولا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قصرت وإن كان الجميع مخدرات، قال ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن مسعود قال: إن لكل مسام خيرة ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، تدخل عليه كل يوم تحفة وكرامة وهدية، لم تكن قبل ذلك لا مرحات ولا طمحات، ولا بخرات، ولا زفرات، حور عين كأنها بيض مكنون.

وقوله تعالى: "في الخيام" قال البخاري، عن عبد الله بن قيس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخريين يطوف عليهم المؤمنون"، ورواه مسلم بلفظ: "إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً"⁽⁶⁰⁾، وقال ابن أبي حاتم، عن أبي الدرداء قال: لؤلؤة واحدة فيها سبعون باباً من در، وعن أبي عباس في قوله تعالى: "حور مقصورات في الخيام"، قال: خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة واحدة أربع فراسخ في أربع فراسخ عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب، وقال عبد الله بن وهب، عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم واثنان وسبعون زوجة وتتصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية وصنعاء"، وقوله تعالى: "لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان"، قد تقدم مثله سواء إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: "كأنهن الياقوت والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان"، وقوله تعالى: "متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان"، قال ابن عباس: الرفرف المحابس، وكذا قال مجاهد وعكرمة هي المحابس، وقال عاصم الجحدري: "متكئين على رفرف خضر يعني الوسائد وهو قول الحسن البصري، وقال سعيد بن جبیر: الرفرف رياض الجنة، وقوله تعالى: "وعبقري حسان"، قال ابن عباس والسدي: العبقري الزرابي، وقال سعيد بن جبیر: هي عناق الرابي يعني جيادها، وقال مجاهد: العبقري الديباج.

وسئل الحسن البصري عن قوله تعالى: "وعبقرى حسان"، فقال: هي بسط أهل الجنة أبا لكم فاطلبوها، وقال أبو العالية: العبقرى الطنافس المحملة إلى الرقة ما هي، وقال القيسي: كل ثوب موشى عند العرب عبقرى، وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة، فإنه قد قال هناك: "متكئين على فرش بطائنها من إستبرق"، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها اكتفاء بما مدح به البطائن وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟" فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهيات كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخيرتين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين: ثم قال: "تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام"؛ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.⁽⁶¹⁾

وفي الحديث الآخر: "ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام" وفي رواية: "ألظا بذى الجلال والإكرام"، وقال الجوهرى: ألظ فلان بفلان إذا لزمه"، وقول ابن مسعود: ألظوا بياذا الجلال والإكرام؛ أي: الزموا، يقال: ألظ فلان بفلان هو الإلحاح، وفي صحيح مسلم، عن عائشة قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا سلم لا يقعد يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول: "اللهم أن السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام."⁽⁶²⁾

يتبين من خلال البحث أن العلامة ابن كثير اهتم بتفسير القرآن الكريم وأولاه عناية كبرى، حيث فسر القرآن بالسنة وأقوال الصحابة والتابعين، كما استشهد بالشعر لتأكيد المعنى والكلمات المستعملة لدى العرب والمقصود بمعاني الألفاظ لديهم لأن القرآن أنزل بلسان عربي وأن على المسلمين مسؤولية تقديم تفسير كتاب ربهم - القرآن الكريم - نقياً خالياً من الشوائب، ومن الاتجاهات المنحرفة والروايات الواهية والأفكار المذهبية المتعصبة، ومن أعداء الإسلام الذين يحاولون طمس هويتنا الإسلامية وتشويهه إسلامنا.

فمن واجبنا أن نكشف أسرار كتابنا العظيم، فالتفسير هو المفتاح لكشف هذه الكنوز والذخائر التي احتواها هذا الكتاب المجيد وبدونه لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر واللالى والجواهر مهما بالغ الناس من ترديد ألفاظ القرآن وقرءوا آياته في كل صباح ومساءً، وأنه لمن المؤسف أن يكتفي المسلمون من القرآن بألفاظ يرددونها وأنغام يلحنونها في المآتم والمقابر وعند الاحتفالات الرسمية ثم لا يكون للقرآن نصيب فيهم إلا الطرب بالسماع أو التبرك بالتلاوة وهذا ما عناه الرسول (صلى الله عليه وسلم): "يتخذون القرآن مزامير"، وقد نسى المسلمون أو تناسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبره وتفهمه وفي الاهتمام بهدية والاستفادة من تعاليمه وتوجيهاته ثم الوقوف عند أوامره ومراضيه والبعد عن مساخطه ونواهيته.

هوامش البحث :

1. البداية والنهاية لابن كثير ، مكتبة المعارف بيروت - 1981، ج: 14، 320، وتذكر الحفاظ للذهبي: دار إحياء التراث بيروت ، 233/1
2. البداية والنهاية 322/14
3. البداية والنهاية 322/14
4. البداية والنهاية 333/14
5. الأعلام للزركلي: دار العلم للملايين - لبنان ط 6، 1984 ج 320/1
6. طبقات الحفاظ للذهبي: دار البشائر الإسلامية، دمشق، 1429هـ، ج 29/4
7. عمدة التفسير: اسماعيل بن كثير الدمشقي، ت/ أحمد شاكر، دار الوفاء ط 2، 2005، ج 25/1.
8. ذيل تذكرة الحفاظ لأبي الحسيني: دار الكتب العلمية بيروت، ط 1، 1998م، ص: 58، وعمدة التفسير: 1 / 28
9. المصدر نفسه: 69
10. النجوم الزاهرة: لابن تغرى، المؤسسة المصرية العامة، ج 11/123.

11. طبقات المفسرين - الحافظ شمس الدين محمد الداودي، ت/على محمد، مكتبة وهبة بمصر، ط1، 1972- ج1، ص 110 - 111.
12. المرجع نفسه.
13. التنبيه للشافعي، مطبعة البابلي الحلبي - مصر 1951م
14. أنباء الغمر لابن حجر، ت/حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1998م، ج40/1.
15. طبقات الحفاظ للذهبي، ت/ محمد التكله، ج2/4.
16. عمدة التفسير لابن كثير: 25/1
17. طبقات المفسرين: الحافظ شمس الدين الداودي: ج1/110-111
18. التيسير في أصول التفسير ومناهج المفسرين، دعبدالله حميد: 165.
19. مختصر تفسير ابن كثير: محمد الصابوني، دار الجيل - بيروت، ج 7/1
20. سورة النساء: الآية: 105
21. سورة النحل: الآية: 44
22. سورة النحل: الآية: 64
23. رواه الإمام أحمد في مسنده: 131/4، وأبو داود برقم 4604
24. تفسير ابن كثير، دار الفكر - بيروت 1412هـ. ج7/480
25. سورة الأحزاب، الآية: 56.
26. سورة الإسراء، الآية: 1.
27. الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لأبي شهيه، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية 1973، ص 183.
28. رواه الترمذي في سننه 399/5، رقم الحديث (3291)، وانظر تفسير ابن كثير، دار الفكر - بيروت - 1412هـ، ج7/489.
29. سورة الرحمن، الآيات من: 1 - 13.

30. سورة يس، الآية: 40.
31. الأنعام، الآية: 96.
32. تفسير ابن كثير، 489/7.
33. سورة الحج، الآية: 18.
34. سورة الحديد، الآية: 25.
35. سورة الإسراء، الآية: 35 ؛ والشعراء، الآية: 182.
36. تفسير ابن كثير 489/7.
37. المصدر السابق. 491/1.
38. رواه الإمام أحمد في مسنده 109/42، رقم الحديث (25194)، ورواه البيهقي في السنن 3/9.
39. سورة المعارج، الآية: 40.
40. سورة المزمل، الآية: 9.
41. تفسير ابن كثير 492/7.
42. سورة الأنعام، الآية: 130.
43. سورة فاطر، الآية: 12.
44. تفسير ابن كثير 492/7. والحديث أخرجه ابن أبي حاتم 418/2.
45. سورة الإنسان، الآية: 9.
46. تفسير ابن كثير 496/7. والحديث رواه البخاري موقوفاً من كلام أبي الدرداء 144/6.
47. سورة القيامة، الآية: 10.
48. تفسير ابن كثير: 497/7.
49. سورة الفرقان: الآية 25.
50. سورة المرسلات: الآيتان 35 ، 36.

51. سورة الحجر: الآيتان 92 ، 93 .
52. تفسير ابن كثير: 496/7 .
53. سورة غافر: الآيات 71 ، 72 .
54. رواه ابن أبي شيبة في مسنده: 49/1، حديث رقم: 308
55. تفسير ابن كثير: 500/7 .
56. المصدر نفسه: 503/7 .
57. المصدر نفسه: 504/7 .
58. معالم التنزيل اللغوي للبعوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1420هـ، ج456/7 .
59. تفسير ابن كثير: 506/7 .
60. رواه الطبري في المعجم الكبير: 367/23 .
61. تفسير ابن كثير: 506/7 .
62. المصدر نفسه: 508/7 .